الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٠ —

الفلسفة الهندية

البراهمية الأولى أو الأورثوذوكسية

تشبه آلهة البراهمية الأولى بوجه عام آلهة الإغريق، إذ لا يخفى على الباحث — إذا أغضى عن الموازنة الدقيقة — ما يلفت النظر من المشابهة الواضحة بين آلهة « الفيدا » وآلهة « الإلياذة » و « الأودسا » تلك المشابهة التى لا تجعل مجالا للشك فى أن آلهة الكتابين من أسرة واحدة يتفقون جميعاً فى البساطة والطفولة وسرعة الغضب وسهولة العودة إلى الرضى وفى الخلو من الحقد وسوء النية والأنانية والوحشية المتأصلة فى آلهة الأشوريين أو البابليين مثلا، وهم يتفقون كذلك فى القرب من صف الإنسانية كاستعانتهم ببنى البشر مثلا فى الوصـول إلى غاياتهم ثم مكافأتهم إياهم بحمايتهم لهم وعطفهم عليهم.

ومما يلفت النظر فى هذه المشابهة هو بساطة اختصاص آلهة « الفيدا » كآلهة « الإلياذة » و « الأودسا » وخلوها من التعقيد الذى كان فيما بعد من مميزات الديانة «الأندويسمية» التى ظهرت بعد الفيدا بعدة قرون وكانت مزيجاً من الديانتين: « الفيدية » والهندية المحلية القديمة، فـ « أندرا » مثلا هو كبير الآلهة وهو إله السماء والمناخ، و « رودرا » و « أجنى » هما صاحباه وساعداه على تصريف شؤون الكون. و « جاما » إله الموت و « أوسباس » إلهة الفجر. وهكذا كل إله له اختصاص محدد ودائرة محصورة.

بدء الخلق

تسمق « البراهمية » الأولى عقيدة بدء الخلق من أسطورتين قديمتين فأما أولاهما، فهي أن الإله « براجاباتى » هو فى نفس الوقت خالق ومخلوق، لأنه كان فى أول الأمر واحداً فاشتاق إلى التكثر وتمناه. فلم يكن من بقية الآلهة إلا أن أجابوه إلى سؤله. فضحوه وقطعوه إرباً ونثروا أجزاءه فى جميع البقاع، لتحقق هذا التوحد المنشود من جميع الأجزاء. وهذا الشوق هو سر التجاذب الخفى الموجود فى جميع عناصر الكون، وأنجع الوسائل لتحقيق هذه الغاية هى الضحايا التى يقوم بها بنو البشر.

على أن الوصول النهائى إلى هذه الغاية لا يتحقق تماماً، لأن ما يجتمع من هذا الإله بوساطة الجاذبية الطبيعية من جهة وبالضحايا المقدمة من بنى الإنسان من جهة أخرى لا يلبث أن يعود إلى التفكك بعملية خلق جديد يتولاها هذا الإله بنفسه من نفسه رغبة منه فى إنشاء كون وتكثير وحداته. وستظل هذه الدورة مستمرة كالحلقة المفرغة التى لا يمتاز مبدؤها عن منتهاها إلى ما شاء الله أن يكون، ولكن القرابين والضحايا هى أهم أسباب هذا التجاذب الذى يقع بين العناصر المتناثرة فيجمع شتاتها، إذ هى العامل الأوحد الذى يصل بين الإله والأناسى من جهة وبين الأفراد بعضهم مع بعض من جهة أخرى، وأكثر من هذا أنها هى التى تعيد للإله قوته بعد تفككها بسبب تناثر أجزائه.

هذه هى الأسطورة الأولى فى عقيدة بدء الخلق، أما الثانية فهى أن الإله « براجاباتى » أحس يوماً بشغف مادى شديد نحو ابنة « أوسباس » إلهة الفجر الجميلة فأبدى لها هذه الرغبة فارتاعت منها ارتياعا شديدا وفرت من وجهه مذعورة، فتعقبها وأخذ يرقب حركاتها، فكلما تشكلت بأنثى كائن من الكائنات تشكل هو بصورة ذكر هذا الكائن، وظل على هذه الحال حتى استولى عليها ونال منها بغيته، فحملت لساعتها بأول أفراد هذا العالم الموجود.

وحدة الوجود

كان من نتائج الأسطورة الاولى أن سرت فى تلك البلاد

فكرة وحدة وجود ساذجة لم تلبث أن تحولت إلى وحدة الوجود الفلسفية ، تلك الوحدة التى أخذت تقوى مع الزمن حتى عم الاعتقاد بها بلاد الهند كافة . وها هو ذا البيرونى يحدثنا عن وحدة الوجود فى الديانة الهندية بعد تاريخ « الفيدا » ببضعة وعشرين قرنا فيقول : « قال (باسديو) فى كتاب (بكيتا) : أما عند التحقيق فجميع الاشياء إلهية لأن (بشن) جعل نفسه أرضاً ليستقر الحيوان عليها ، وجعله ماء ليغذيهم ، وجعله ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم . وجعله قلبا لكل واحد منهم ، ومنح الذكر والعلم وضديهما على ما هو مذكور فى بيذ[1] » .

اختلاف الطبقات

كانت طبقات الشعب الهندى فى عهد البراهمية الاولى أربعاً ، أولاها البراهمية « Brahmanes » ، وهم الكهنة ثانيتها (كساتريا) « Ksatriyas » ، ويسميها البيرنى (كشتر) وهى طبقة الجند . ثالثتها طبقة « Vaicyas الفيسيا » ، ويسميها البيرونى « بيسن » ، وهى طبقة العمال وأصحاب المهن والزراع . رابعتها « سودرا Cudras » ، ويسميها البيرونى (سودر) وهى طبقة الأرقاء . ومما جاء فى كتاب البيرونى عن هذه الطبقات قوله : « وهذه الطبقات فى أول الأمر أربع ، عليها البراهمة قد ذكروا فى كتابهم أن خلقتهم من رأس براهم وأن الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة ، والرأس علاوة الحيوان فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس ، والطبقة التى تتلوهم (كشتر) خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمه غير متباعدة جداً ، ودونهم (بيش) هم (شودر) خلقوا من رجلى براهم . وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان »[2] .

كتابهم الأول المقدس — الفيدا

ليست « الفيدا » كتاباً هندياً أصلياً وإنما هى كتاب « أندوآرى » حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى « البنجاب » المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضاً . وإذاً ، فهو لا يمثل العقلية الهندية ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهرة فى تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرناً كما أسلفنا ، بل بالعكس كثيراً ما يجد فيه القارىء صورا عقلية واجتماعية هي على طرفى نقيض مع الصور التى اكتشفها الآثريون حديثاً للهند المحلية الغابرة ، وفوق ذلك هو مكتوب باللغة « السانسكريتية » التى لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك والتى هى لغة الآريين وحدهم .

غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة فى تاريخ الديانة الهندية ، وسيظل كذلك — رغم يقيننا بأجنبيته — حتى يكشف علماء العاديات ما يحل محله فى هذه الأولوية من الكتب المقدسه القديمة .

ولا يعرف المؤرخون بالضبط متى جمعت « الفيدا » ، وإنما كل الذى ثبت لديهم هو أن بعض أناشيدها يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل المسيح ، وأن صيرورة هذا الكتاب إلى ما هو عليه الآن قد استغرقت عدة قرون ، ويرجح بعض العلماء أنه قد جمع فى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وأن تياره القوى لم يستطع أن يجرف العقيدة القديمة من نفوس جميع أبناء الشعب الهندى ، وإنما قد صبغ تلك العقيدة بلونه الجديد كما أسلفنا ، ولم يقو على محوها إلا من نفوس الخاصة المثقفة أما الجماهير فقد ظلت العقيدة القديمة محتفظة بمكانتها فى نفوسهم احتفاظاً كان فى أول الأمر صامتاً أمام قوة الديانة الأجنبية المنتصرة ، ولكنه أخذ بعد ذلك يقوى وينتعش شيئاً فشيئاً حتى برز منه الشىء الكثير على مسرح الوجود .

لكلمة « الفيدا » عدة معان ، أدقها : « العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول » . وينجم عن هذا التعريف أن تكون « الفيدا » منبع جميع المعارف الهندية من : دينيات وأخلاقيات ونظريات علمية أو اجتماعية ، وهى تحتوى أوراداً تعبدية وأناشيد دينية . وتعاويذ سحرية نزل بها الوحى من عند الله على قلب « براهما » فتلاها على الناس فاستظهروها وأخذوا يتعبدون بتلاوتها دون أن يكتنهوا أسرارها . وهى مؤلفة من اربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى « رك بيذ »

(١) صفحة ١٩ من كتاب « تحقيق ماللهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » « لأبى الريحان البيرونى »

(٢) أنظر صفحة ١٩ من كتاب البيرونى

Rec-Veda « رك فيدا » وهى تحتوى على الأوراد . والثانية تسمى : « سام بيذ » Saman-Veda « سامان فيدا » وتحتوى على الأناشيد . والثالثة « جزر بيذ » Gajus Veda « ياجوس فيدا » وتحتوى على طقوس الضحايا والقرابين . والرابعة « أثارفين — بيذ » Atharvan-Veda « أتهارفان فيدا » وتحتوى على التعاويذ السحرية .

هذا ، واليك ما كتبه أبو الريحان البيرونى عن هذا الكتاب : « بيذ » تفسيره العلم بما ليس بمعلوم ، وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم « براهم » ويتلوه « البراهمة » تلاوة من غير أن يفهموا تفسيره ، ويتعلمونه كذلك فيما بينهم يأخذه بعضهم من بعض ، ثم لا يتعلم تفسيره إلا قليل منهم . وأقل من ذلك من يتصرف فى معانيه وتأويلاته على وجه النظر والجدل ويعلمونه « كشتر » [1] فيتعلمه من غير أن يطلق له تعليمه ولو لبرهمن ، ثم لا يحل لبيش[2] ولا لشودر [3] أن يسمعاه فضلا عن أن يتلفظا به ويقرآه ، وإن صح ذلك على أحدهما دفعته البراهمة إلى الوالى فعاقبه بقطع اللسان . ويتضمن « بيذ » الأوامر والنواهى والترغيب والترهيب بالتحديد والتعيين والثواب والعقاب ، ومعظمه على التسابيح وقرابين النار بأنواعها التى لا تكاد تحصى كثرة وعسرة ، ولا يجوزون كتابته ، لأنه مقروء بألحان ، فيتحرجون عن عجز القلم وإيقاعه زيادة ونقصاناً فى المكتوب . ولهذا فاتهم مراراً [4] ويروى لنا البيرونى كذلك أن أكثر البراهمة يدعون أن « الفيدا » معجزة لا يستطيع أحد مهما أوتى من ذكاء الجنان وقوة البيان أن يأتى بمثله ، أما أقلهم فيزعمون أن بلغاءهم قادرون على الاتيان بمثله ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراماً له »

ولعلك — إن كنت ممن لهم إلمام بالمذاهب الاسلامية — تذكر أن هذه المسألة بالذات قد أثيرت بين علماء المسلمين ، وأن هذا الخلاف عينه موجود بينهم على الصورة التى وجد عليها بين البراهمة ، فذهبت الأكثرية الساحقة من علماء المسلمين إلى أنه ليس فى طاقة البشر الاتيان بمثل أصغر سورة من القرآن مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة ، وذهبت أقلية من هؤلاء العلماء إلى أن الفصحاء ممنوعون قسراً إرادتهم عن هذه المحاكاة بحيث أنه لو فرض وجود كتاب آخر يستوى مع القرآن فى البلاغة ويصعد إلى طبقته فى الفصاحة والاتقان لأمكن للفصحاء تقليده . وإذاً فالعجز عن الاتيان بمثل القرآن فى رأى هذا الفريق ليس أصلياً فى عقول الفصحاء ، وإنما هو عارض دعا اليه إجلال القرآن . ونحن نرجح أن عناصر الخلاف فى هذه المسألة بين علماء المسلمين إنما هي دخيلة جاءتهم من الديانة الهندية ، ونرجح كذلك أنهم لو لم يتأثروا بهذا الخلاف الهندى لظلوا جميعاً على رأى واحد فى هذه المسألة ولأجمعوا على أن القرآن لا يقصد بقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » إلا إعلان العجز الطبيعى الأصيل ، وإلا لما صح التحدى ، لأنه لا معنى لأن تتحدى شخصاً ثم لا تدعه على حريته ، بل تحاول صرفه عما تحديته فيه وإذا ، فلو دقق هذا الفريق النظر فى الآية الكريمة لما ذهب إلى ما ذهب اليه .

هذا ، ولا يفوتنا قبل مغادرة هذه النقطة أن نعلن أن هذه المغالاة من جانب البراهمة فى تقديس كتاب الفيدا هى التى حالت بينه وبين التبديل والعبث اللذين وقعا فى كتاب البوذية كما سنشير إلى ذلك فى حينه

(يتبع) غمراوى

(١) كشتر (٢) بيش (٣) شودر ، أسماء طبقات فى الهند كما قدمنا
(٤) راجع صفحة ٦٠ من كتاب البيرونى المذكور

استدراك : وقع خطأ فى المقال السابق عدد ٢٠٦ بأن وضع سطر أوله : غير أن النار . . . الخ فى آخر ص ٩٨٦ وصحته فى آخر ص ٩٨٧ فوجب التنبيه

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبى
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية المشهورة